

وصفها، وفي منطقتها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيقَةِ﴾ أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وهو في الخصام﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غير مبين﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفسح عمّا احتوى عليه ضميره، فكيف ينسوتن الله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إنثاءً، فتجروا على الملائكة، العباد المقربين، ورفوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنثوية، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يظرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحججة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخبطنون خبط عشواء.

ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي:

فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهى الشبهة، وهي تقليد آباؤهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي: على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها﴾ أي: منعموها، وملؤها الذين أطفعتهم الدنيا، وغرتم الأموال، واستكبروا على الحق. ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي: فهؤلاء ليسوا يبدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فانتقمنا منهم﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه هذه الشبهة الباطلة. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيهم ما أصابهم.

﴿٢٦ - ٣٢﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون﴾ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون * بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون * وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أمهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق



بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم:

﴿إنني براء مما تعبدون﴾ أي: مبغض له، بحيثب معاد لأهله، ﴿إلا الذي فطرني﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني وذبرني بما يصلح بدني ودينابي، فـ ﴿سيهدين﴾ لما يصلح ديني وأخري.

﴿وجعلها﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه.

﴿كلمة باقية في عقبه﴾ أي: ذريته ﴿لعلهم﴾ إليها يرجعون لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطمعان.



لرحمة الله، وييدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها من يشاؤون؟

«نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فييسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدنيوية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمر كلها، دينها وديورها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلظهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه السلام، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حقه، أن جعل لإلهه الذي يعبد ويدعوه ويقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل

السفهاء والمجانين؟

ككيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم عليه السلام؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والجرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدنيوية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، وجعل ﴿لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون﴾ من فضة، وجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، متغصّة، مكدرّة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره

فقال تعالى: ﴿بل تمتعت هؤلاء

وأبائهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل تترى جيبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿ورسول مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته عليه السلام.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقّة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وأبائهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله رداً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الخزان

إذا هم ينكثون ﴿٤٦﴾ .

﴿ونادى فرعون في قومه قال﴾ مستعلياً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يا قوم اليس لي مُلكٌ مِضْرٌ في﴾ أي: أليس المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وهذه الأنهار تجري من

تحتي﴾ أي: الأنهار المنسجبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا تبصرون﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ﴾ يعني - قبحه الله - بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحقر، فأنتا خير؟ ﴿و﴾ مع هذا فلا ﴿يكاد يبين﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفضيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقیلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فلولا الفتي عليه أسورة من ذهب﴾ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً مجملاً بالخلي والأساور؟ ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فاستخف قومه فاطاعوه﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي: دليل يدل على أن فرعون محق، لكون مُلك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى، لقلّة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فسبب فسقهم، قبض لهم

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ فقال إني رسول رب العالمين ﴿فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه، فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزؤوا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ كالجراد، والقمل، والصفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى الإسلام، ويدعون له، ليزول شركهم وشركهم.

﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يا أيها الساحر﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي: بما خصك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ إن كشف الله عنا ذلك، ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والصفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه



عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، ﴿وسوف تسألون﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله، وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦ - ٥٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ إلى آخر القصة^(١) لما قال تعالى:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ بين تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. ﴿وكانوا مسلمين﴾ الله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الانصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادخلوا الجنة﴾ التي هي دار القرار ﴿أنتم وأزواجكم﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تخبرون﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي: تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين يطعامهم، بأحسن الأواني وأقصرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفيها﴾ أي: الجنة ﴿ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقررة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكب، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار حدقة، ونعم مرتقة، وميان مزخرقة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ وهذا هو غم نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وتلك الجنة﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿التي أورشتموها بما كنتم تعملون﴾ أي: أورشتمكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

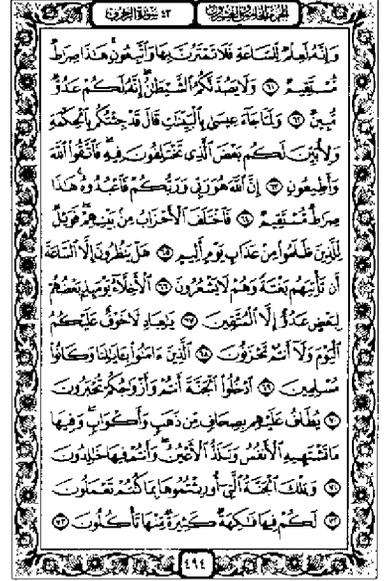
[﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ كما في الآية الأخرى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾. ﴿منها تأكلون﴾ أي: مما تخيرون من تلك الفواكه الشهية،

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٦٦ - ٧٣﴾ ﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم باليومين * أنتم تحزنون * الذين آمنوا بأياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التي أورشتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون * يقول تعالى: ما ينظر الكاذبون، وهل يتوقعون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها، وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالفين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿بعضهم لبعض عدو﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. ﴿إلا المتقين﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿الذين آمنوا بأياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي: وصفهم الإيمان بأيات الله، وذلك ليشمل التصديق



من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قال﴾ لبني إسرائيل: ﴿قد جئناكم بالحكمة﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا وتمعنًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نيه، وأمنوا بي وصدقوني وأطيعون.

﴿إن الله هوري وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو الربى جميع خلقه بأنواع التعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿اختلف الأحزاب﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿من بينهم﴾ كل قال بعيسى

فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له وبعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. ﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ من الشريك والظهير، والعبرين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلموهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿٨٤-٨٩﴾ ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾ وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون * وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ يخبر تعالى، أنه وحده المألوه العبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

سرهم ونجواهم بلى ورسلتنا لديهم يكتبون﴾ يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أمراً﴾ أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فإنما ميرمون﴾ أي: يحكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويطله، وهو ما قضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾.

﴿أم يحسبون﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أنا لا نسمع سرهم﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿ونجواهم﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بلى﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿ورسلنا﴾ الملائكة الكرام، ﴿لديهم يكتبون﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون * فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكنني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر

والشمار اللذيذة تأكلون﴾ (١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾ لا يفترون عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين * ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾.

﴿إن المجرمين﴾ الذين أجزموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿في عذاب جهنم﴾ أي: منغمرون فيه، يحيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خالدون﴾ فيه، لا يخرجون منه أبداً، و ﴿لا يفترون عنهم﴾ العذاب ساعة، بإزالتة، ولا يشهرون عذابه، ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿ونادوا﴾ وهم في النار، لعلمهم بحصل لهم استراحة، ﴿يا مالك ليقتض علينا ربك﴾ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في عذاب شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. ف ﴿قال﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -: ﴿إنكم ماكثون﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم ويخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفرتم وسعدتم، ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ فلذلك شقيتم شقارة لا سعادة بعدها.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ أم يحسبون أننا لا نسمع

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أورشتموها بما كنتم تعملون).

جلاله، ويفتخرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين غتارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبه فيها. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعظيم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسمرات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفراد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿والله ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء التاجون من عذاب الله، الخائزون لشوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيل يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فإله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقَابِلُ به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فُضِّلَ به أهل الأرض والسما، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غبّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكية

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلمٌ مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين * فيها﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدرتي وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،



الذي يكون في ليلة القدر، أحد^(١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما يسجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتنائه تعالى بخلقه **﴿أمرأ من عندنا﴾** أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، **﴿إنا كنا مرسلين﴾** للرسول، ومنزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأقداره، **﴿رحمة من ربك﴾** أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، **﴿إنه هو السميع العليم﴾** أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: **﴿لا إله إلا هو﴾** أي: لا معبود إلا وجهه، **﴿يحيي ويميت﴾** أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، **﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾** أي: رب الأولين

والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام وبدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان **﴿في شك يلعبون﴾** أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، **﴿فارتقب﴾** أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، **﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس، أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: **﴿هذا عذاب أليم﴾**

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والثأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسليية الرسل والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: **﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾** وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يظلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: **﴿اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف﴾**، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: **﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾** أن ذلك بالنسبة

إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحوا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعاه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** إخبار بأن الله سيصرف عنهم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** يوم ينطش البطشة الكبرى

(١) في النسخين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).